فلسفة التواصل عند هابرماس

المدرس المساعد : حوراء حميد محسن

hawraa77@uomstansiriyah.edu.iq

أصبح مفهوم التواصل من المفاهيم المركزية المتداولة في الفلسفة المعاصرة. اذ لم يعد الاهتمام بالتواصل منحصرا في المجال التداولي المرتبط بتبادل المعلومات و تقنيات تبليغها و ايصالها، بل أصبح يشكل نظرية علمية و فلسفية مستقلة بذاتها. و تعد مرجعية هابرماس الفلسفية دليلا على هذا التحول. انها مرجعية استفادت من نظريات العلوم الاجتماعية التي كانت سباقة الى التمهيد لذلك التحول عندما ركزت على أن الأنا أو الهوية الذاتية هي حصيلة تفاعل رمزي مع الآخرين.

سنسلط الضوء، في هذه الورقة، على مشروع هابرماس الرائد، في الفلسفة النقدية الالمانية المعاصرة من خلال التركيز على الهم الذي حرك الرجل و هو: كيف يكون الاندماج الاجتماعي ممكنا؟ باعتباره الإشكال الذي اعتزمت فلسفة التواصل لدى هابرماس الإجابة عنه.

يحدد هابرماس الافعال التواصلية على النحو التالي : " هي تلك الافعال التي تكون فيها مستويات الفعل بالنسبة للفاعلين المنتمين الى العملية التواصلية غير مرتبطة بحاجيات السياسة، بل مرتبطة بافعال التفاهم ". و لاتفاهم بدون لغة؛ و هذا ما يبرر كلام المهتمين بهابرماس عن المنعطف اللساني لديه، و الذي يشير اليه هو بنفسه. و هو ما دفعه الى ادخال اللغة كعامل لفهم العلاقات التواصلية. فلتعزيز تصوره للفعل التواصلي من اجل فهم افضل للعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع ذهب الى ان الفعل التواصلي يتميز عن غيره من الافعال الاخرى بأنه لا يسعى للبحث عن الوسائل التي تمكنه من التأثير في الغير، بل

يبحث عن كيفية التوصل الى تفاهم معه و توافق متبادل دونما اكراه او قسر كيفما كان نوعهما.

ادا كان التفاهم الغاية القصوى للفعل التواصلي، فانه لا يمكن تصوره بين الاطراف المتحاورة الا بشروط من اهمها عدم تأثير طرف على آخر لان دلك لو حصل يِؤدي حتما الى فشل

شتان اذن ما بين الاتفاق الذي هو سليل التفاهم، و التأثير الدي هو سليل الاكراه و الضغط، يتسم فيه الفعل التواصلي بالهيمنة. فالتفاهم صنو و رديف للفعل التواصلي من حيث انه يهدف الى تحقيق الاتفاق؛ و هو ما يطلق عليه هابرماس ايضا اسم الاجماع، اذ في ظل غياب هذا الاخير بين اطراف الفعل التواصلي، يفشل هذا الاخير. ثمة اذن شروط حجاج و مناظرة بدونها لا يتحقق الاجماع العقلاني. ذلك ان الاستعمال اللغوي اذا كان يتضمن حججا مبنية، فانه سيؤدي حتما الى تحقيق اتفاق مشترك. لان الهدف بالنسبة لهابرماس من الدخول في تحاجج، هو التوصل الى تواصل كامل.

اي دور للفلسفة في فعل التواصل ؟

ما مهمة الفلسفة عند هابرمس، فيلسوف التواصل، في زمن التحولات الكبرى؛ على صعيد الفلسفة و على صعيد الخارطة الجيوسياسية العالمية عقب سقوط حائط برلين و انهيار الايديولوجيات الكبرى؟

حمل هابرمس حملة شعواء على الميتافيزيقا تستعيد تقليد مدرسة فرنكفورت بهذا الخصوص حيث التأكيد على انه ليس من شأن الفلسفة اليوم ان تتأمل في معرفة المطلق ، بل عليها ان تقلع عن التفكير فيه. و هو يتهم التيارات الفلسفية المختلفة التي عاصرها بتفاوتها مع اللخطة التاريخية لالمانيا. و قد تبلور لديه، انطلاقا من ذلك، ما يمكن تسميته فكرا ما بعد ميتافيزيقيا.

اعتقد هابرماس ان الفلسفة المطلقة كانت تشكل عائقا امام تطور العقلانية حين تصورت انها تمتلك الحقيقة و العقلانية التي يريدها هابرماس في المجتمع المعاصر، مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية ليست عقلانية مطلقة، تدعى الفلسفة بناءها لوحدها بل عقلانية تواصلية نقدية اجرائية مندمجة في العالم المعيش. و لتوسيع هامش هده العقلانية الجديدة و بلورتها، انتقد الاتجاهات الوضعانية الجديدة المعجبة بالعلم الى حد تأليهه. و هو ما خصص له كتابين هما :

- العلم و التقنية كايديولوجيا؛
- المعرفة و المصلحة

يؤكد هابرماس ان الفلسفة لا يمكنها ان تكون علوما حقة مثلما يدعى الوضعانيون و ما تأكيده المتكرر على خصوصية العلوم الانسانية سوى محاولة لابعاد شبح التطرف العلمي الوضعاني عنها؛ و سحب البساط من تحت اقدام العقل التقني بغية بلورة نظرية فلسفية نقدية تعمل على تحرير الانسنان و تحرير محيطه من هيمنةالعلم و التقنية؛ انها نظرية تقرن النظر بالعمل؛ اذ في المصلحة التحريرية و الانعتاقية للانسان تجد الفلسفة مكانها، حسب هابرماس. فعلى الفلسفة مسؤولية التصدي لكل هيمنة تقنية تعمل على تشييئ الانسان و تحويله الى سلعة. بذلك ستسعى الفلسفة الى خلق حوار داخل مجتمع خال من الهيمنة، و تلعب دورا بارزا في ازالة كل الآثار التي شوهت الحوار الذي بامكانه ان يوصل النوع البشري الى مستوى النضج و الرشد و يعني هذا، من بين ما يعنيه ان مستقبل الفلسفة يظل رهينا بالممارسة السياسية . خصوصا و ان الانسانية تعيش في ظل اوضاع تتسم بالتطور الاقتصادي و العلمي و التقني، اي نعيش في ظل اوضاع تتسم بتسييس العلم و التقنية و علمية السياسة، و منح صلاحية اتخاد القرارات الكبرى للتقنوقراط.

هكذا يتبين ان نظرية التواصل عند هابرماس انبنت على موقف جديد من الفلسفة، يعيد تحديد مهامها و اهدافها بحيث تندمج في افق نقدي جديد فتلعب دورا ايجابيا و فعالا ضمن

مباحث اخرى كعلم الاجتماع و مجمل العلوم الانسانية في اطار تكاملي، و ليس في اطار الهيمنة على تلك العلوم. و بذلك ابتعد هابرماس عن كنط و هيغل و هذا ما عنيناه في البداية بابتعاده عن فلسفة الوعي.